إنعتاق وأشواق

قراءة في مدونة الشاعرات التونسيات

إنّ مدونة الشّعّر التونسي الجديد أضحت زاخرة بالأقلام النسائية حتى لكانها تمثل أحد خصائصه و هي مسألة يمكن أن تفسر بمقاربات ثقافية وإجتماعية ذلك أن المرأة قد اكتسحت جميع المجالات منذ النصف الثاني من القرن العشرين وهي التي وجدت في الشعر منذ القديم شكلا مناسباً للتعبير فانبثرت مع سنوات الإستقلال وقد تحررت من القيود و دخلت المدارس و الجامعات معبرة عن إنعتاقها وأشواقها بطلاقة وقد صادفت من ناحية أخرى الشعر هو كذلك قد تحرر وتخلص إلى حد كبير من قيوده فطفقت منطلقة العنان واللسان معبرة عن الوجدان بما يكمن فيه من سمات و بصمات كيف لا و المرأة التونسية ظلّت عبر أغلب العصور مصدرا للشعور بالكرامة و الاعتزاز بل والإستقلالية بما لها من مبادرة ومهارة هي التي وصلت أحيانا إلى قيادة البلاد كما كان الشأن في عهد عليّسة الفينيقيّة والكاهنة البربريّة و الأميرة الحاضنة الصنهاجية والجازية الهلالية وغيرهنّ من النساء اللواتي كان لهن الشأن و السيادة الاجتماعية في عصورهن بل وإلى عصرنا هذا كالسيدة المنوبية وعزيزة عثمانة.

فليس عجبا إذن أن تكتسب المرأة بسرعة عجيبة مكانتها المهمّة في المجتمع الحديث بعد الإستقلال وما كان ذلك أن يتوفر لها لولا مخزونها التراثي الكبير - مثل الصداق القبرواني الذي يشترط على الزوج الإكتفاء بزوجة واحدة - فساعد كل ذلك على فرض وجودها في النصف الثاني من القرن العشرين بفضل التشريعات الجديدة التي ثبتت في تونس على مدى السنين حيث فتحت أمامها أبواب التعليم و الإدارة و - الأعمال الحرة - ودور الثقافة ومجالات الابتكار والإبداع ومن بينها الشّعّر الذي

سرعان ما انخرطت في حركته التجديدية.

من بين الأصوات العديدة التي جاءت بعد حركة الطليعة و - غير العمودي والحر - الشاعرة زهرة العبيدي في مجموعتها الشعرية الأولى - رجل الإكليل والزعتر - التي ترسم فضاء ريفياً و احتفالا بتفاصيل الطبيعة و رونقها كقولها

الشتاء
على الشجر
على التربة وأنوف الفلاحين
صلبة ترتعش
عند المساء
ستحسن لسعة البرد
أكثر
حين تزهر المواعد
خلف الشبابيك البعيدة
وتغمر زقزقة الأطفال
فضاء البيوت
الحامية

وفي هذه المجموعة ثمة وقوف عند دقائق العلاقات الحميمة الخاصة مثل تلك الوشائج الصغرى بين البنت وأمها في مرحلة من مراحل وعي الصبية بذاتها وبشخصيتها التي بدأت تستقل بعالمها الجديد وهي تكتشفه من خلال التجربة الذاتية ولكن دون أن تتخلص من رواسب عالم أمها القديم

أتكؤم قدّامك
أمّي
أخفي الصّدر
والكحل
فحدّثني كما كنت
عن الشجر الناطق
والحورية التي تطلع من البئر
ووضمّخي بالزّيت

شعري
وبالورد الذي كنت أعود به
موؤودا
في الجيب
فأنا مازالت أبكي
وأشتهي حناء العرائس
والحلوى

ذلك هو الشعر الجديد الذي تكتبه هذه الشاعرة ذات الوجدان الزاخر
برواسب الماضي والمتفاعل مع واقع فرض نفسه على مستوى الفرد
والعائلة و المجتمع في جميع مظاهره، إنَّ زهرة العبيدي ترسم هذا النبض
الجديد في القصيدة التالية على هذا النحو فتبدأ بالإطار العام للمكان وتخطُّ
الألوان وتفصّل الشخصيات وتبوح بالمتناقضات لتصل عند آخر القصيدة إلى
إنجاس الذات المرهقة رغم كلِّ العوائق

أشجار السرول
تأخذ لون الليل
وتقطر حزنا
حين يأتي على حيننا المساء
حيننا جنازة متلفعة
ببقايا ضوء
من نهار
وبأشباه أشجار
ونساء
ورجال

مع المساء تتضاءل المدينة
البعيدة
تسكن الخرافة
حدود الأشياء
وتكبر فواتير النور

والدواء
وتأخذ عنف الحصار
وأبي ينسى أسماءنا دوما
ولا ينسى أبدا
مواعيد الصلاة
لا يطلب أجرته
إن تأخرت أو تبخّرت
و يدافع بشراسة نملة
عن شرفة
في الجنّة

وأُمِّي
تحبّي ضفيرتها وحلمها
كلّ عيد
ولا تنسى خطاف الوجد
وجذع الكرمة
وتكتب رسائل
بلا أحرف
لأخي المورّع
على أرصفة الدّنيا
وتودّعها الغيمة
وتبتسم كل عام
مرّتين
مرّة حين ينجح
أخي الأصغر
مرّة حين ينسلح من غربته
أخي الأكبر

وأنا بين البسمتين

أغلف تفاصيل المساء

... نعناعا

...وسكر

بعد المجموعة الشعرية الأولى - رجل الإكليل والزعر - تؤكد الشاعرة زهرة العبيدي في مجموعتها الثانية - امرأة المواسم - أسلوبها الشعري الجديد الذي بدأ يترسخ في تونس ضمن المشروع التجديدي الأدبي العام ، إن القصيدة في هذا الديوان الثاني تبدو ذات خصائص أساسية تتجلى في طرافة المواضيع فهي ليست في شيء مما يسمي - بمواضيع أدب النساء - وإنما مواضيع زهرة العبيدي صادرة عن رفاة حس ودقيق ملاحظة ونفحة وجدان.

أما من حيث الأسلوب فإن معمار القصيدة لديها يبنى بما قل ودل من الكلام فلا زيادة ولا نقصان وإنما القصائد كل كلمة فيها بحسبان ذلك أن القصد والاقتصاد واضحا في هذه القصائد التي لا تقول كل ما فيها إلا بإضافات القارئ نفسه فالشعر البديع متعدد الأبعاد متجدد المعاني لنفيس كنهه وعميق غوره

وبالإضافة إلى القصد في المعنى والاقتصاد في المبنى فإن الصدق واضح في هذه القصائد حيث يتجلى وهج المعاناة من مكابدة الحياة ، إن الشاعرة زهرة العبيدي بهذه المجموعة تضيف إلى مدونة الشعر الجديد الذي ليس بديلا للشعر القديم البديع وإنما هو تعبير آخر وأسلوب مغاير عن معاناة الذات في خضم الحياة في واقع جديد بما فيه من تناقضات وإيقاعات

قصائد زهرة العبيدي مكتوبة بالحس المرهف و بالعين الثاقبة وبالحيرة الباحثة وتتجلى في نصوصها ترسبات القصيدة القديمة لأنها من قاع الذاكرة وتظهر فيها عدسة الكاميرا عند اللقطة السريعة ويبدو فيها الضوء والحركة والصوت عند المشهد المسرحي وتلوح في إطارها لمسات ألوان الريشة عندما تغدو بعض القصائد لوحات بين الرسم ذلك أن الشاعر لا تكتب بالقلم فحسب بل تراوح شعرها بين الفنون الأخرى حتى لكان القصيدة لديها تناغم بين أشكال وأجناس إبداعية عديدة

إن قصائد مثل (حكاية حطاب) و(عجوزان) و غيرها تتجلى بحق نموذجا راقيا للشعر الجديد

إن شجرة الشعر العربي الجديد تثمر في أكثر من غصن ...

إذا كانت نصوص زهرة العبيدي ذات نسيج ريفي يجعل من الطبيعة في الشمال الغربي التونسي إطارا عاما للذات وللشخصيات فإن الشاعرة رجاء بن حليلة في مجموعتها الشعرية - مزامير الحلم والرحيل تنطلق من

مدينة تونس العتيقة فتجعلها مصدرا للشجون بما توحى لها من حين
وذكريات

درونا تتقاطع
ولن تلتقي
ولن تعقل أزقة المدينة العتيقة
خطواتنا الليلية
وهمساتنا المكتومة
وضحكاتنا عند الزوايا المظلة
وأنت تمسك يدي

درونا تتقاطع
ولن تلقي
ولن نمرّ بعد اليوم
كشبحين جميلين
بسوق العطارين
ولا ببوّاب البركة مساء
تزمّلنا القبلات والعتمات
ولن نُسلم على حارس القصر
قرب الفانوس العتيق
يشعل لفافته
ويضجر

درونا تتقاطع
ولن تلتقي
وسأمّرّ بالحناء والبخور
وبعطر الحلم أضعه مساء
لحين تجئ
وسأمّرّ بالكحل
وبشوش الورد

وباللُّبان والمستكة
وبريح المسك الأبيض
بالصُّندل والتد الهندي
وبالبائع يقول في أدب
تفضلي سيديتي
لشعرك حناء قابسيّة
وكحل الجميلات
وعطور من ليالي شهرزاد
تفضلي جرّبي

سامرّ بها كلّ يوم من دونك
ولن تعقلني
درونا تتقاطع
... ولكن
لن ... لن تلتقي

في هذه القصيدة تلخّ رجاء بن حليمة على إعلان القطيعة وتناسي العلاقة القديمة لكنّها في الآن نفسه تؤكد على ذكر مكونات المكان الذي كان مسرحا لحميم اللقاءات بينهما وهي تفاصيل تشمل تقريبا جميع الحواس ممّا يزيد في توهّج الذكريات إنّها نوع جديد من الوقوف على الأطلال لكنه وقوف أصبح مرورا وهي أطلال غدت مليئة بالحركة والحياة فكأنّها تستعذب الفراق من حيث أنّها تنبش فضاء الماضي في الذاكرة : بصرا ولمسا وانتشاقا ومذاقا

إنّ التغمّي بالمكان واضح في تجربة رجاء بن حليمة في هذه المجموعة الشعريّة فثمة تصوير لتونس العتيقة في قصيدة (دروب) وثمة وصف لمدينة - بركا - على الخليج العربي إذا تقول في قصيدة - مزموّر المساء -

مساء الذّكري ... يا حلوة
إن أنسى فلن أنسى
دروب اللّيل في بركا
وفسحة ساحة الأمل

وموعدنا مع القمر
وجلسنا للسَّمَر
... وكأس الشاي والقهوة

مساء الشُّوق... يا حلوة
مضي عامان
عن يوم تلاقينا
هناك عند الخليج
تزمّلنا ... نخلة

إلى جبل في قصيدة (عروس النيل) تتغني بمصر من (أسوان) إلى
(المقطم) ومن مسجد (الحسين) إلى (النيل) والقاهرة فتضمّن بعض
المقاطع من أغنية شعبية مصرية مثل

مصر يا أمّه يا بهيّة يا أمّ طرحة وجلّابية
الزمن شاب وانتي شابة
هو رايح وانتي جيّة

وبعد تونس ومصر والخليج تكتب رجاء بن حليلة عن مدينة (سراييفو)
قصيدة ذات إيقاع ثقيل فيه من الرثاء حزنها وفيه من الإدانة تهمتها إلى
العالم كأنها القصيدة الشهادة

من يشهد للميتين؟
من يرفع قبّعتَه للذين قُتلوا بالعراء
على مرأى من الله
... من ... من يصلي للأنبياء
قبّعات زرقاء
قدّت من لون السّماء
مثقلة بالسّواد

فالذين قتلوا... ههنا
تركوا على أكفان سراييفو
دما أزرق كحلم البحيرات
وقبوراً بيضاء ... كالثلج بيضاء

وبالإضافة إلى تعلق رجاء بن حليلة بالمكان تنطلق منه لكثير من نصوصها
(فإنها تتمثل وتنطلق من التراث مثل قولها منذ القصيدة الأولى - ورقة -

أنا امرأة

من حروف ومن ورق
أنا امرأة لن تحترق

أنا النار

إن تقترب مني
أكن عليك برداً وسلاماً
وأهطل حباً حباً وهياماً

وإن تبتعد

أصليكَ شوقاً وأكوبك حيناً وأرق

فتضمن قصّة ابراهيم واضح من خلال هذه القصيدة والشاعرة تستلهم
كذلك قصّة مريم عند قولها

وماريا

خطيئتها، أنّها كانت عذراء
وتهمتها أنّها لم يمسسها
أنس ولا جان

وإنها لم تعرف من الرجال
سوى رجل ... ولدته

و حين أشارت إليه في المهد
... أن : تكلم
ت...ك...ل...م

العربي في السينغال
صار إلهها
و مات

فهذه قصيدة ذات دلالات عديدة منذ العنوان إلى آخر كلمة فيها فهي متداخلة المعاني التي يمكن أن تنطلق من المقدس لتصل إلى عوالم المدنّس ويمكن أن ترمز إلى تجربة المذكر والمؤنث من ناحية وهي تحتمل من ناحية أخرى قضية الخلق والوجود والعدم بل يمكن أن تُباشر هذه القصيدة بأدوات التحليل النفسي أيضا بالإضافة إلى مداخلها الأخرى والتي من بينها حضور النص المغيب مثل قولها (ماريا) ويمكن أن نتساءل بعد قراءة هذه القصيدة سؤالا عميق الأبعاد : هل عندما يتكلم الإنسان يموت؟

إن قصائد عديدة لدى رجاء بن حليلة نلاحظ فيها إحالات على التراث الدّيني سواء من خلال عناوينها أو في غضوناتها من ذلك قولها في قصيدة - عروس النيل -

، تنام الغيطان،
تتوسّد حزن النيل
وتحلم بنخلة على مشارف أسوان
أصلها في السماء
وفرعها عند سدرة المنتهى

وقولها في قصيدة - تأيينة الفارس الأخير -

ارحل
زمن الحريف هذا
ودم الشقيق

أحبّ أحدكم أن يأكل
لحم أخيه ميتا
فأكلوه
هذا حطام عصر
تجهله الألوان
لم يدخل ذاكرة الماء
ليكون محفوظا
كما حفظ الله الكتاب الأول

إن تضمين النصوص التراثية ظاهرة واضحة في الشعر الجديد عامة حتى
أمست إحدى أهمّ علاماته ولعلّ ذلك يعود إلى الطاقة الإبداعية التي
مازالت كامنة في تلك النصوص القديمة فسلطان القديم له تأثير على
النفوس وذلك التضمين يؤكد لدى شعراء وشاعرات الشعر الجديد عامّة
تمسكهم بتراثهم البديع من ناحية وإثباتهم أنّ إضافاتهم تندرج ضمن تفاعل
اللاحق بالسابق إستمرار تواصل بلاقطعة أو إنبات
تقول رجاء بن حليمة وقد إستلهمت المخيال الشعبي التونسي في تبدل
الطقس

جمرة أولى
الفصل آخر شتاء
نزلت جمرة الهواء
واشتعلت جمرة الهوى
سود ليالي العمر
وبارد ... بارد هذا الغطاء

جمرة ثانية
الفصل آخر شتاء
نزلت جمرة الماء
ونار القلب ما انطفأت

جمرة ثالثة

عاد ربيع الرّوح
ليؤثث هذا الخراب ب
فقد نزلت جمرة التراب

فهذه القصيدة والتي تحمل عنوان (جمرات) اعتمدت على الانطلاق من
المخزون الشعبي في توالي وتعاقب الأيام خلال فصل الشتاء وعند دخول
فصل الربيع ثم وظفت مجال الإيحاء لترتقي به إلى فضاءات تشتمل على
خلجات الجسد وومض الرّوح أيضا

أمّا من حيث الشكل العام للقصيدة فقد اعتمدت على توالي المقاطع
كتواتر الجمرات بين الشتاء والربيع فإذا هي ثلاث جمرات لثلاثة مقاطع
والعدد ثلاثة يفيد تمام الوجود الذي يترتب عليه الكون بالإضافة إلى رموزه
الأخرى في الأنوثة والخصب وإلى دلالاته في الطقوس القديمة

ولرجاء بن حليلة قصيدة أخرى ترتقي فيها من المعنى المباشر إلى
الفضاءات الرّحية فقد انطلقت من (الكمان) لتصل من خلال خشبه وأوتاره
ومفاتيحه إلى ذروة النّشوة في شئى مجالاتها كأثها تنصهر مع بقية العناصر
في الطبيعة الشّاملة من خلاله

ضمّني

ضمّني

واعجن ضلوعي

أعد تشكيل خارطة الجسد

شدّني على عنف صدرك

أو أبعدني

اكسرني كموجة تعربد

على صخر لحنك

مزّق بأناملك أوتاري

بعثر مفاتيحي الأربعة

وافتح عوالم أسراري

سأتلو عليك وحيي

أسفار الخشب الخمسة

وعهد الغابات القديمة

وقرآن الشجر
فصص الحطّابين
وصدى أغنيات الغجر الرّاحلين
في الزّمان الغابر

... ضمّني

صمّني

آه

اعزفني

اعرفني

إنّ البعد الدّاتي واضح في تجربة رجاء بن حلّيمة حيث يبدو الصدق في المعاناة منذ مجموعتها الشعريّة الأولى (المرايا) التي أصدرتها سنة 1990 فهذا الدّيوان عبارة عن رسالة مفتوحة إلى من يهيمه الأمر أو هو يمثل شهادة فيها من الصراحة والجرأة ما يجعل الشاعرة في هذا الدّيوان تكتب في أدب البوح والسيرة الدّاتية

في سياق سنوات التسعينات من القرن العشرين ظهرت الشاعرة أمال موسى في مجموعتها الشعريّة الأولى (أنثى الماء) كاشفة عن عوالم مخفية لدى المرأة بما فيها من توق وشوق وتوهّج وانتصار وانكسار وكبح وضبح ورغبة ورهبة بحيث أنّ مواجد الشاعرة تتجلي في تمام الوضوح من خلال التّصوص فكأنّها تقف وراء بلور شفاف وقد أزاحت عن نفسها ستار وبرقع اللّغة لذلك فإنّ المباشرة النفسية لمثل نصوص أمال موسى قد توصل إلى أبعاد مهمّة في مكاشفة تجربتها الشعريّة نلاحظ حضور الماء ضمن لفظه أو من خلال مدلولاته في أغلب القصائد من ذلك مثلا قصيد - اكتمال -

أثير بثوبي

خيول الماء

ما سرّ ارتوائي

حسبي أنّ الدّنيا ستقودني

وتلقي بي

إلى النّسيان

بل إنّ الشاعرة تعتمد إلى استهلال مجموعتها الشعريّة بيت للمتنى هو

وكم جبال جبت تشهد أنّي
الجبال وبحر شاهد أنّي البحر

وفي قصيدة (أعشقني) ورد فيها أيضا

من البحر
أبارك تدفّقي ، تلاطمي
أحضنني في صدري

إلى أن تقول مصرّحة بالماء

صورتني تحمل الماء للعطش

فالقصيدة لئن صرحت ب (الماء) لفظا فإنّها اشتملت كذلك على نقيضه
أي العطش

وفي القصيدة الثالثة قولها

لا الحبّ
يجرفني
ولا ماء الأهداب
يغسلني

فلا تكاد تخلو قصيدة من القصائد لدى آمال موسى إلاّ وفيها تصرّيح بالماء
أو تلميح له بمدلولاته فالأمر بعد أن إسترعى الانتباه لا بُدّ من تفسير لدى
مختصّي التحليل النفسي فليس من السهل أن نروم مسلك الاستنتاجات
العامة في هذه المسألة وليس لدينا مفاتيح مغالقه الدقيقة

إنّ الشاعرة تبدو م خلال هذه المجموعة الشعريّة مزهوّة بنفسها إلى حدّ
التماهي والتمايل في تباه و وله بعشق الذات فهي القائلة واصفة بعين

عاشقة لتفاصيل جسدها

لوني الماء
وهو وجه البسيطة ساعة الغروب
الشعر ثوبي الملوكي
الكتفان وكران
واحد لليمامة
وآخر لصقر ناعس
الثهدان خميرة أسراري
الخصر كوكب يدور حول غزالة
اليدان جرّتان مسجورتان
بالماء
بلوني
الساقان مدن
ضاقت بمواعيد العشاق
الأصابع تمشط ضفائر قصيدي
أيّ جدار يتحمّلي لوحة؟

.فليس عجباً أن تحمل هذه القصيدة عنوان (لوحة لا يتحمّلها الجدار)

في قصائد آمال موسى ثمة مدائح للذّات الأنثى إلى حد التغرّل بمفاتيح
جسدها التي لا يقدر على وصفها الوصّافون والتي لا يصل إلى معرفة كنهها
العارفون حيث تقول

أيّ رجل يحتملني
أيّ امرأة تستأنس برفقتي
أيّ طفل لا تقتله دهشتي
أيّ أب يحب شببهي
أيّ اسم يسع ملامحي
أيّ فعل يدّعي اختزالي

يا أيتها النَّار
ما الذي يطفئك
قطرة مئِّي
أم شعلة فيَّ؟

إنَّ هذا الإعجاب العجيب بنفسها يصل مرّة إلى السُّبق الدّاتي الذي ينصرف
إلى التلذذ الدّاتي ويصل مرّة أخرى إلى المرارة والانكسار
فأمّا التلذذ فمثل قول الشّاعرة

حين إلّئ أمضي
أباغت الأسرار
أفصل البقاع
أصوغ أسماء جديدة للأمصّار
أتسلّق الأطراف
أتحسسّ النهدين
أطمئنّ الخصر
أعدّ أصابعي العشر
النجوم السّاكنة خلف السّماء
حين نوقي أطيّر
أجدني كلّ الجغرافيا

إنّ الشّاعرة وهي تقطف فاكهة بساتينها لنفسها بنفسها كحال قولها: (أنثي
في أنثي أنا

متيّمة
أغتسل بأنوثتي
جمرة مبللة
صائبة تعبد كوكبها
أصابعي حبر
خصري لفاف ورق

وفيّ مضيت

لكنّ ذلك العزف العذب على أوتار الدّات قد يغلف المرارة والإنكار أيضا
وذلك مثل قولها

هو الجنون يكبر
حتي أولد
النار توقدني اخضرارا
ليتنى كلّي أحترق
كما
فعل بعضي
وأعيش الاحتراق

فكثير من نصوص آمال موسى تبدأ منطلقة من ذاتها و من التغرّل بصفات
لتصل على ذروة التوحّد في تفاصيل كيانها من أصابع وخصر وساقين وشعر
وضفائر وشفاه لكنها تنتهي في أغلب الأحيان بالخيبة والارتباك
والانكسار والحزن و الانكفاء رغم احتفالها باللذة والجسد

يمكن أن نذهب في الرأي حول قصائد الشاعرة في (أنثي الماء) أنّ
التحليل النفسي يفسّر الكثير من الحالات في تلك القصائد ويؤدي إلى
الإقرار بأنّ الشاعرة وهي تمدح آلاء نفسها فأثّها لتفرّ من مجابهة فشل
العلاقة بالآخر والآخرين معها

لذلك يمكن أن تتابع ظلال الأشخاص في هذه النصوص فإذا هم أشخاص
باهتو الملامح فاقدو السّمات وبصماتهم ممحيّة أو تكاد فقط الأنا وحدها هي
الواضحة والمهيمنة والمعشوقة والمعبودة لكنها ذاتها مأزومة ومهزوزة لأنّها
تثور على ذاتها عندما تتابع ذاتها مثل قولها في هذه القصيدة

التقط لي صورة فاتنة

يشعّ منها بريق حزني

صورة

تتوقف فيها الابتسامة

في زاوية البوح

التقط لي صورة

وأنا أغتسل خلف مرآتي

صورة
ساعة ألتف حولي وأصير مثالي

صورة
حين أقبل يدي
لأصفح عني
التقط أي صورة
وأنا أمزق هذه الصور

إنّ تجربة الشاعرات التونسيات من خلال فضيلة الشابي وزهرة العبيدي ورجاء بن حليلة وأمال موسى تبدو منعقدة من أغلال ورتابة العروض من ناحية وتلوح تائقة إلى فضاء التحرّر الإنساني والاجتماعي والنفساني أيضا فقد عبّرن في أغلب نصوصهنّ عن شوقهنّ العارم إلى تحقيق ذواتهنّ وسجلنّ بصدق كبير تجاربهنّ في أحلامهنّ حيناً وفي خيباتهنّ حيناً آخر...